
www.kotobarabia.com
مصطفى لطفي المنفلوطي
www.kotobarabia.com
الحجاب

الحجاب

مصطفى لطفي المنفلوطي

ذهب فلان إلى أوروبا وما ننكر من أمـره شـيئا ، فلبث فيها بضع سنين ، ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منـه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة ، وذهب بقلـب نقي طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر ، وعـاد بقلـب ملفق مدخول لا يفارقه السخط علـى الأرض وسـاكنها ، والنقمة على السماء وخالقها ، وذهب بنفس غضة خاشـعة ترى كل نفس فوقها ..وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها ، وذهب برأس مملوءة حكماً ورأيا ، وعاد برأس كرأس التمثال المثقـب لا يملأها إلا الهواء المتردد ، وذهب وما على وجـه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتـراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلـى أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على أجسـامهم إفراغـا لا

تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تَنْصـل وتتطـاير ذراتها في أجواء السماء ، وأن مكان المدينة الغريبـة مـن نفوسهم مكان الوجه من المرآة ، إذا انحرف عنها زال خياله منها ، فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ، ولبسته على علاته وفاء بعهده السابق ، ورجاء لغده المنتظر ، محتملا في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله ، حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ..ومصيبة المصائب ، فكانت آخـر عهـدي بـه . دخلت عليه فرأيته واجماً مكتئباً ، فحييته فأومأ إلي بالتحيـة إيماء ، فسألته ما باله

فقال :مازلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدري مصير أمـري فيه .

قلت :وأي امرأة تريد؟

قال :تلك التي يسميها الناس زوجتي ، وأسـميها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي .قلت :إنك كثيـر الآمال يا سيدي ، فعن أي آمالك تتحدث؟ قال :ليس لي فـي

الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عيني ثم أفتحهما فلا أرى برقعاً على وجه امرأة في هذا البلد .

قلت : ذاك مـا لا تملكـه ولا رأي لـك فيـه .

قال : إن كثيراً من الناس يرون فـي الحجـاب رأيـي ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسنهم كمـا يجلـس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد ، فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي القديم الذي وقف سـداً دون سعادة الأمة وارتقائها دهراً طويلاً ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشـياعها ، فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيل إليهـا أنني جئتها بإحدى النكبات العظـام ، والرزايـا الجسـام ، وزعمتْ أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك حياء منهن وخجلاً ، ولا خجل هناك ولا حياء ، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه ا علـى هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمـة مـن

خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلان مـن مقبـرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أمنيتـي ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجـاً ينتهـي بإحـدى الحسنيين إما بكسره أو بشفائه ..!فورد علي من حديثه مـا ملأ نفسي هماً وحزناً ، ونظرت إليه نظرة الراحم الراثـي

وقلـت :أعـالم أنـت أيهـا الصـديق مـا تقـول؟

قال :نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعت ..!

قلت :هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشتَ فتـرة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهـل تذكر أن نفسك حدثتك يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فنلتَ ما تطمح فيه من حيث لايشعر مالكه؟

قال :ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد؟

قلت :أريد أن أقول لك إني أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك.

قال: إن المرأة الشريفة تسـتطيع أن تعـيش بـين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتـد إليـه المطامع ، فتداخلني ما لم أملك معه وقلت لـه :تلـك هـي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمـة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ، ومداركم فيفسدها عليكم ، فالشرف كلمة لا وجود لها إلا في قواميس اللغة ومعاجمها ، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها ، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مسـتنقع كَدِر .والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلّما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة.

قال :أتنكر وجود العفة بين الناس؟

قلت :لا أنكرها لأني أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلّفين ، ولكني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجـاب وخـلا وجـه كـل منهمـا لصـاحبه.

في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبـرز نسـاؤكم لرجالكم؟

أفي جو المتعلمين ، وفيهم من سئل مـرة :لِـم لَـم يتـزوج؟ فأجـاب :نسـاء البلـد جميعـاً نسـائي. أم في جو الطلبة ، وفيهم من يتوارى عـن أعـين خلانـه وأترابه خجلا إن خلت محفظته يوماً من الأيام من صـور عشيقاته وخليلاته ، أو أقفرت من رسائل الحـب والغـرام؟ وبعد ، فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتمطّـق بحـديثها ، والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها ، وحريتهـا وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم ، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلـك الـنعم علـى غيـركم؟..! هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فـإن عجـزتم عـن الرجـال ، فـأنتم عـن النسـاء أعجـز. أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شئتم ، ودعوا هذا الباب موصداً ، فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويـلاً عظيماً ..وشقاء طويلا.

أروني رجلا واحدا منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها ، فأصدق أن امـرأة تسـتطيع أن تملـك هواهـا بـين يـدي رجـل ترضـاه. إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه وتطلبـون

عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها فـي معركة أحسبكم إلا خاسرين.

ما شكت المرأة إليكم ظلما ، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبـين نفسها؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثهـا؟..! إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلا إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها ، فأوصدت من دونها بابها ، وأسـبلت أستارها ، تبرماً بكم وفرارا من فضولكم ، فواعجبـاً لكـم تسجنونها بأيديكم ، ثم تقفون على بـاب سـجنها تبكونهـا وتندبون شقاءها..!

إنكم لا ترثون لها ، بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها ، بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجاً وسفورا ، ويتدفق خلاعة واستهتارا ، وتودون بجدع الأنف لو ظفـرتم هنـا بـذلك العـيش الـذي خلفتمـوه هنـاك. لقد كنا ، وكانت العفة في سقاء من الحجاب موكوء ، فمـا زلتم به تثقبون في جوانبه ، كل يوم ثقبا ، والعفة تتسلل منه

قطرة قطرة حتى تقبض وتكرش ، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلّوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطـرة واحدة.

عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها مطمئنة في بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كـل السعادة في واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها ، وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشـرف كل الشرف في خضوعها لأبيها وائتمارها بأمر زوجهـا ، ونزولها عند رضاهما.

وكانت تفهم معنى الحب ، وتجهل معنى الغـرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج ، رأت هـي أن الزواج أساس الحب .فقلتم لها إن هؤلاء الذين يسـتبدون بأمرك من أهلك ، ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلاحق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها ، وتمردت على زوجها ، وأصبح البيت الذي كـان بـالأمس

عرساً من الأعراس الضاحكة ، مناحة قائمة ، لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها.

وقلتم لها لا بد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك ، فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ، ثم الشقاء الطويل بعد ذلك ، والعذاب الأليم.

قلتم لها إن الحب أساس الزواج فما زالـت تقلـب عينيها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة ، حتى شغلها الحب عن الزواج فعنيت به عنه.

وقلتم لها إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الزواج غير العشـيق ، فأصبحت تطلب في كل يوم زوجاً جديداً يحيي مـن لوعـة الحب ما أمات الزوج القديم ..فلا قديما استبقت ولا جديـداً أفادت.

وقلتم لها لا بد أن تتعلمي لتحسني تربيـة ولـدك ، والقيام على شؤون بيتك ، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها ، والقيام على شؤون بيتها.

وقلتم لها نحن لا نتزوج من النساء إلا مـن نحبهـا ونرضاها ، ويلائم ذوقُها ذوقَنا ، وشعورها شعورنا ، فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباهج أنظـاركم ، لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم ، صـفحة صفحة ، فلم تر فيه غير أسماء الخليعـات المسـتهترات ، والضاحكات اللاعبات ، والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ، فتخلعت ، واستهترت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم ، ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف ، تعرض نفسها عليكم عرضاً ، كما تُعرض الأَمةُ في سوق الرقيق ، فأعرضتم عنها ونَبوتُم بها ، وقلتم لها:

-إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات ، إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة ، وقد أباهـا الخليـع ، وتَرفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت.

وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعاً وتمشّت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتعاجز الفريقـان ، وأظلـم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يـرى فيهـا

الرائـي إلا رجـالاً متـرهبين ، ونسـاء عانسـات. ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ..وهذا رثاؤكم لهـا وعطفكم عليها..!

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلى العلم ، فليهذبها أبوها أو أخوها ، فالتهذيب أنفع لها من العلم ، وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم ، فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عِشرةَ نسائهم .وإلى النور والهـواء تبرز إليهما ، وتتمتع فيهما بنعمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك ، وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها ، كمـا يرافق الشاةَ راعيها ، خوفاً عليها من الذئاب ، فإن عجزنـا عن أن نأخذ الآباء والأخوة والأزواج بذلك ، فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها ، فليست المرأة بأقدر على إصـلاح نفسـها مـن الرجـل علـى إصـلاحها. أعجب ما أعجب له في شؤونكم أنكم تعلمتم كل شيء ، إلا شيئاً واحداً هو أدنى إلى مدارككم أن تعلموه قبل كل شيء ، وهو أن لكل تربة نباتاً ينبت فيها ، ولكل نبات زمناً ينمو فيه. رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها ، فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال

سوادها الأعظم في حاجة إلـى معرفـة حـروف الهجـاء.
ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة ، لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانهـا ، فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شـيء ، إن كـان هنـاك مـا يغنـي عنـه.
ورأيتم الرجل الأوروبي حراً مطلقاً يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد ، لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسـه فلا يتخطاها ، فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسـها رجـلاً ضعيف الإرادة والعزيمة ، يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدرٍ زلقٍ إن زلّت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك ، حتى يبلـغ الهـوة ويتـردى فـي قرارتهـا.
ورأيتم الزوج الأوروبي الذي أطفأت البيئة غيرته ..وأزالت خشونة نفسه وحرشَتَها ، يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء ، وتصاحب من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ، فيقـف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتلبد .فأردتم الرجل الشرقي الغيور الملتهب أن يقف موقفه ، ويستمسـك استمسـاكه ..!
ورأيتم المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية في كثير من مواقفها

من الرجال أن تحتفظ بنفسها وكرامتها ، فأردتم من المـرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبـرز للرجـال ببروزهـا ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها .وكل نبات يزرع في أرض غيـر أرضه ، أو في ساعة غير ساعته ، إمـا أن تأبـاه الأرض فتلفظــه ، وإمــا أن ينشــب فيهــا فيفســدها. إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني ، والحرمة الدينيـة ، أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنـات فـي بيوتهن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن ، فكل جرح من جروح الأمة لـه دواء ، إلا جـرح الشرف ، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا ، فانتظروا بأنفسكم قلـيلاً ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموهـا عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين.

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية .

وقال :تلك حماقات مـا جئنـا إلا لمعالجتهـا ، فنصطبر عليها حتى يقضي ا بيننا وبينها.

فقلت له :اك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء ..وائذن لي أن أقول لك إني لا أستطيع أن أختلـف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي ، لأني أعلـم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عـن وجه امرأة من أهلك تقتلني حياء وخجلاً .ثم انصرفت ..

وكـان هـذا فـراق مـا بينـي وبينـه. وما هي إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصـبح مغشياً ، لا تزال النعال خافقة ببابه ، فذرفت عيني دمعة ، لا أعلم هل هي دمعة الغيرة على العـرض المـذال ، أو الحزن على الصديق المفقود..!

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ، ولا يزورني ، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلا ، فأحييه تحيـة الغريب للغريب من حيث لا يجري لما كان بيننا ذكـر ثـم أنطلق في سبيلي.

فإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس ، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ رأيته خارجا من منزله يمشـي مشـية

الذاهل الحائر وبجانبه جندي من جنود الشرطة كأنمـا هـو يحرسه أو يقتاده فأهمني أمره ، ودنوت منه فسألته عن شأنه

فقال - :لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندي قـد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة ، ولا أعلـم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سببا ، وما أنا بالرجل المذنب ، ولا المريب . فهل أستطيع أن أرجوك يا صـديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علّني أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشؤون؟

قلت :لا أحب إلي من ذلك .ومشيت معه صامتا لا أحدثه ولا يقول لي شيئا ، ثم شعرت كأنه يزور في نفسـه كلاما يريد أن يفضي به إلي فيمنعه الخجل والحياء ، ففاتحته الحديث وقلت له:

-ألا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سببا؟ فنظر إلي نظرة حائرة ،

وقال :إن أخوف ما أخافه أن يكون قـد حـدث لزوجتي الليلة حادث ، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلى

المنزل حتى الساعة ، وما كـان ذلـك شـأنها مـن قبـل.

قلت :أما كان يصحبها أحد؟

قال :لا.

قلت :ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه؟

قال :لا.

قلت :ومم تخاف عليها؟

قال :لا أخاف شيئاً ، سوى أني أعلم أنها امرأة غيور حمقاء ، فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه ..فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة.

وكنا قد وصلنا إلى المخفر فاقتادنا الجندي إلى قاعة المأمور فوقفنا بين يديه ، فأشار إلى جندي أمامه إشارة لـم نفهمهـا ، ثـم اسـتدنى الفتـى إليـه وقـال لـه: يسوؤني أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد عثـروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة في حال غير صالحة ، فاقتادوهما إلى المخفر ، فزعمت المرأة أن لها بك

صلة ، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها ، فإن كانـت صادقة أذنّا لها بالانصراف معك إكراماً لك ، وإبقاء علـى شرفك ، وإلا فهي امرأة عاهرة لا نجاة لهـا مـن عقـاب الفاجرات ..وها هما وراءك فانظرهما .وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجتـه ، وإذا الرجل أحد أصدقائه..

فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر ، وملأت نوافذه وأبوابه عيوناً وآذاناً ، ثم سقط في مكانه مغشياً عليه ، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل ، وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ، ودعونا له الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة .. ولبث ساهراً بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنـا الصـبح ، فانصرف على أن يعود متى دعوناه ، وعهد إلي بأمره فلبثت بجانبه أرثي لحاله ..وأنتظر قضاء ا فيه ، حتـى رأيتـه يتحرك في مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآني ، فلبث شاخصـاً إلي هنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئاً فـلا يسـتطيعه ، فدنوتُ منه وقلت له:

-هـل مـن حاجـه يـا سـيدي؟

فأجاب بصوت ضعيف خافت :حاجتي ألا يدخل علي أحد من الناس.

قلـت :لـن يـدخل عليـك إلا مـن تريـد.

فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان بالدموع..

فقلت :ما بكاؤك يا سيدي؟

قال :أتعلم أين زوجتي الآن؟

قلت :وماذا تريد منها؟

قال :لا شيء ، سوى أن أقول لها إني قد عفوت عنها.

قلت :إنها في بيت أبيها.

قال :وارحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومهـا !فقـد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجاداً فألبستُهم مذ عرفوني ثوبا من العار لا تبلوه الأيام .من لي بمن يبلغهم عني جميعاً أنني مريض مشرف ، وأنني أخشـى لقـاء ا إن لقيتُـه بدمائهم ، وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عنـي ويغتفـروا زلتي ، قبل أن يسبق إلي الأجل؟ ..!لقد كنتُ أقسمت لأبيها يوم اهتديتها أن أصون عِرضها صيانتي لحياتي ، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي ، فحنثت في يميني ، فهل يغفر لي ذنبي

، فيغفر لي ا بغفرانه؟ نعم إنها قتلتني ..!ولكنني أنا الـذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدته في صـدري ، فـلا يسألها أحد عن ذنبي .البيت بيتي ، والزوجـة زوجتـي ، والصديق صديقي ، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتـــي ، فلـــم يـــذنب إلـــي أحـــد ســـواي.

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً ، حتى لبست وجهـه ، فزفـر زفرة خِلتُ أنها خرقت حجـاب قلبـه ، ثـم أنشـأ يقـول:

-آه ما أشد الظلام أمام عيني ..!وما أضـيق الـدنيا فـي وجهي ..!في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السـقف كنت أراهما جالسين يتحدثان فتملأ نفسي غبطة وسـروراً ، وأحمد ا على أن رزقني بصديق وفي يؤنس زوجتي فـي وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيبتي ، فقولوا للناس جميعاً :إن ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ، ويزعم أنه أكْيس الناس وأحزمهم ، قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وغبـي إلـى الغاية التي لا غاية وراءها.

-والهفا على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في

البنين . لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسـم بعضهم إلى بعض ، أو يحدقون إلي ويطيلون النظـر فـي وجهي ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البله ..والغباوة في وجوه الأغبياء..!

ولعل الذين كانوا يتوددون إلي ويتمسحون بي مـن أصدقائي ، إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي ..! ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم قواداً ويسـمون زوجتـي مومساً ..!وبيتي ماخوراً .. وأنا عند نفسي أشرف النـاس وأنبلهم.

فوارحمتاه لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، ووالهفا على زاوية منفردة في قبر مـوحش يطويني ويطوي عاري معي .ثم أغمض عينيه وعاد إلـى ذهوله واستغراقه.

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يـدها حتى وضعته بجانب فراشه ، ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه فـأحس بـه ، ففتح عينيه فرآه فابتسم لمرآه وضمه إلى صدره ضمة الرفق

والحنان ، وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انـتفض فجـأة واستسر بِشْره ، ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصـيح:

-أبعِدوه عني لا أعرفه ..!ليس لي أولاد ولا نساء ، سـلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه ، لا ألبس العـار فـي حيـاتي وأتركـه أثـراً خالـداً ورائـي بعـد ممـاتي. وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ، فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت إليه واستعبر باكياً وصاح:

-أرجعوه إلي ، فعادت به المرضع ، فتناوله مـن يـدها وأنشـأ يقلـب نظـره فـي وجهـه ويقـول:

-في سبيل ا يابني ما خلّف لك أبوك من اليتم ، وما خلفت لك أمك من العار ، فاغفر لهما ذنبهما إليك ، فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك حسن في جريمته التي اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان .سواء أكنتَ ولدي يا بني ، أم ولد الجريمة ، فإني قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حياً أو ميتاً ، ثم احتضنه إليه ، وقبله ، في جبينه قبلة لا أعلم هل هـي قبلـة الأب الـرحيم ، أو المحسـن الكـريم..!

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى ، وغلت نارها فـي رأسه ، وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خِفْتُ عليه التلـف ، فأرسلت وراء الطبيب ، فجاء وألقى عليه نظره طويلة ثـم استردها مملوءة يأساً وحزناً.

ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ، ويئن أنيناً مؤلماً ، فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفَضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها.

فإننا لجلوس حوله وقد بدأ المـوت يسـبل أسـتاره السوداء على سريره ، وإذا امرأة مؤتزرة بإزار أسود قـد دخلت الحجرة ، وتقدمت نحوه ببطء ، حتى ركعت بجانبه ، ثم أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتهـا وأخـذت تقول له:

-لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك ، فـإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ، ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عني يا والد ولدي ، واسأل ا عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك ، فلا خير لي في الحياة من بعدك.

ثم انفجرت باكية ، ففتح عينيه ، وألقى على وجهها

نظرة باسمة ، كانت هي آخـر عهـده بالحيـاة وقضـى.
الآن عدتُ من المقبرة بعدما دفنتُ صديقي بيدي وأودعـت حفرة القبر ذلك الشباب الناضـر ، والـروض الزاهـر ، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكـاد أملـك مـدامعي وزفراتي ، فلا يهون وجدي عليه إلا أن الأمة كانت علـى باب خطر عظيم من أخطارها ، فتقدم هو أمامها إلى ذلـك الخطر وحده ، فاقتحمه..